يوميات المدى في القاهرة

## بطول ٤٣,٤ متر وعرض ٥,٩ متر

# مركب خوفو يعود للحياة بعد ٤٥ قرناً من الزمان

- ما اذهل العالم هو الطريقة التي حفظت بها المركبة لمدة تزيد على ٤٥ قرنا من الزمان
- للمراكب أهمية خاصة في حياة الإنسان المصري القديم، فقد استخدمها بجميع مجالات الحياة

**تعددت الأسماء والحسن واحد... نعم هذا أقل ما يقال عن جوهرة الشرق قاهرة المعز، مدينة الألف مئذنة.. ومصر المحروسة.. التي عرفت في العصر الفرعوني باسم (من نفر) أي الميناء الجميل وضاحيتها مدينة الشمس، وأول من وحدها كعاصمة لمصر لفترات مختلفة، الملك نارمر قبل ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد، إلى أن أصبحت العاصمة الثابتة لها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٦٣٩ ميلادية بعد أن فتحها القائد العربي عمرو بن العاص الذي قام ببناء أول مسجد فيها وهو الذي يسمى إلى الآن باسمه في حي الفسطاط، وتوالى بناء المساجد فيها حتى بلغ أوجه خلال حكم الدولة الفاطمية التي حكمت مصر خلال الفترة الممتدة بين عام ٩٦٩ وعام ١١٧١، حيث شيّد جامع الأزهر الذي أصبح جامعة إسلامية منذ ذلك الحين.**

القاهرة/ يوسف المحمداوي

### خمسون قرناً وهي العاصمة

وأنت تخرج من مطار القاهرة الدولي الذي يبعد ١٥ كم عن مركز المدينة – تملأ عينيك لوحات من الحسن الذي تحظى به القاهرة التي منذ حوالي ٥٠ قرناً وهي تتبختر على عرش العاصمة في مصر.. جسور توّحد نيلها العظيم، وربيع دائم يغازل مروجها المرتوية والممتلئة بسحر مائها الذي لا ينقطع وعذوبته..

شوارع حديثة وعلى جوانبها يتراقص بصورة جلية قوام العمران وأبهة المكان.. أنفاق للمترو والعجلات.. على أي شيء تلتفت لا تحزن.. مدينة تصل الكثافة السكانية فيها إلى أكثر من ١٥,٠٠٠ ألف نسمة لكل كيلو متر مربع، واقتصاد وخيرات بلد لا تساوي شيئاً إزاء اقتصاد بلدي.. ومع زحمتها وقلة إيراداتها تجدها بهذا الترف الحضاري الذي يجعل منها جوهرة الشرق بلا منازع، كل شيء فيها يفوح منه عبق التاريخ وألق الحضارة فالإسلام حين دخلها أضاف لعمرانها عمراناً آخر وكذلك الفرنج.

### باريس على النيل

فباني مصر الجديدة كما يطلق عليه محمد علي باشا، بنى مصر وهو ينظر إلى باريس، فنجد ما شيده من ترف عمراني على نيلها العظيم مقتدياً ببناء مدينة النور على نهر السين ولا بد من الإشارة إلى أن القائد الفاطمي جوهر الصقلي هو من بنى القاهرة وسماها عام ٩٦٩ ميلادي.

لا أخفيكم حيرتي وأنا أدخل القاهرة.. إلى أين سأذهب؟ فأين ما اتجهت وجدت ما يغريك.. أهراماتها، مساجدها متاحفها، مزاراتها، مدنها.. طبيعة الناس فيها، طيبتهم، حلاوة لسانهم، تواضعهم، كبرياءهم بحب مصريتهم قبل كل شيء.. (أهلاً ياباشا)- (شرفت مصر يابيه)، (العراق أحسن ناس)، (يدكتور)، (يافندم)، (أحلامك أوامر ياسيدي)، وكلمات ترحاب لا تعد تحصل عليها مجاناً وأنت تسير في شوارع وأزقة القاهرة. وأنت تشاهد هذه الحضارة، من غير المعقول أن يتمالك ضميرك نفسه ويصمت على ما يراه في تلك البلدان الفقيرة إذا ما قورنت بثراء بلدي، كيف لا أذرف الدموع وأزفر الحسرات على وطني.

### أهرامات من الخذلان

لا أخفيكم بأني كنت أسير وفي داخلي أهرامات من الخذلان والخيبة على ما فعله بعض ساستنا الجدد في العراق وهم يقودون بلدي صوب الخراب، بلد يرفل بالحضارة ومنه تعلمت البشرية أبجدية اللغة وعدالة القوانين، أي حضارة نحمل وأية قيم وضمائر حملوا أولئك أو هؤلاء الذين يقودون البلد نحو الهاوية.

وأنت تسير صوب المدينة، تجد اللافتات كالسياط التي تجلد النفس (كلنا مصر)، (تحيا مصر)، نموت من أجل الوطن، والتفت إلى مصيبتي – مدينتي لا ترى غير تلك اللافتات السوداء- والشعارات التي تدعو للشخصنة وتقديس الرموز بعيداً عنه تقديس هذا الوطن المبتلى.

لا بد من الإبحار في مركب والهروب باتجاه المجهول الذي ينتظرنا على الأقل لأعرفه وأتلمس حياة من بعدي لأقارن معاناتهم بمعاناتي.

لم أجد نفسي غير متسمر في روعة المكان وأنا أتلمس الدرب مع دليلي محمود عاصم بين أهرامات الجيزة، تحاورت مع الذهول وأنا أرى الأهرامات المتناثرة على رمال الجيزة، لكن ما استوقفني أكثر هو بناء شيّد بأنامل نحات بارع على هيئة مركب ليكون متحف مركب خوفو.

### مراكب دينية وأخرى دنيوية

يقول دليلي أن للمراكب أهمية خاصة في حياة الإنسان المصري القديم، فقد أفلح باستخدامها بجميع مجالات الحياة.. لذا تجدها ومنذ ٣١٠٠ ق.م قد زينت جدران معابد ومقابر الفراعنة وحتى الأواني الفخارية نراها قد زينت بأشكال مختلفة للمراكب، وقد قسمها إلى مراكب دنيوية وأخرى دينية، حيث أن الدينية كان يستخدمها في النقل النهري لجلب الحجارة الضخمة من الجنوب إلى الشمال وخاصة من مدينة أسوان- ولم تقتصر الرحلات على النهر فقط، بل كان يستخدمها في رحلاته البرية التجارية وعلى رأسها رحلة (بونت) أي الرحلة إلى الصومال، وكذلك دخلت تلك المراكب الحروب حيث وظفها الملك رمسيس الثالث في حروبه ضد شعوب البحر، وتجد ذلك في الرسومات الموجودة على جدران معبده في مدينة (هابو) القديمة (الأقصر حالياً).

ويضيف محمود أنها المراكب الدينية.. بعضها كان يستخدم لحمل جثمان الملك في رحلته الأخيرة لحج الأماكن المقدسة ومن ثم نقله من قصره إلى مكان دفنه.. وهي مراكب رمزية تستخدم في قدس أقداس المعبد لينقل بها تمثال الآلهة على اكتاف الكهنة في زيارته للمعابد الأخرى، وهناك مراكب تسمى بالمراكب الشمسية تقوم بنقل الميت مع آلهة الشمس والآلهة الأخرى في رحلته للعالم الآخر، وهذا ما بينته لنا جدران المقابر الملكية لما تحويه من أجزاء للأثاث الجنائزي الذي يرافق الميت.

### الكراسي مصيرها الزوال

دخلنا إلى خوفو بعد أن تم تفتيشنا بواسطة أجهزة حديثة طلب منا أحد موظفي الاستعلامات أما خلع الأحذية أو تغليفها بواسطة أكياس نايلونية ليسمحوا لنا بالدخول والقصد منها المحافظة على أرضية المتحف من الأتربة العالقة في أحذية الزائرين، مكتبة المتحف على يسار باب الدخول، وبجانبها هناك ثلاثة كراسي رئاسية حمراء، سألت القمر عفوا السيدة الجالسة في المكتبة عنها قالت: أنها كانت للرئيس مبارك وعائلته.. والحقيقة كنت أنوي الجلوس عليها لكني تذكرت مصير مبارك فخشيت أن أجلس عليها ملتفتا صوب بعض الساسة القائمين على قيادة البلد.. طالباً منهم بوخزة ضمير أن يتذكروا أين هي كراسي وصور وتماثيل صدام وغيره من جبابرة العصر؟؟!.

حتى يعرفوا إن كانوا لا يعرفون أن الكراسي مصيرها إلى الزوال وتظل المواقف هي الشاهد على انجازات الرجال أو إخفاقاتهم.

### مكتشفها العالم المصري كمال الملاخ

انتبهت لصوت دليلي وهو يقول.. يعد الكشف عن مركب خوفو من أهم الكشوفات الأثرية في مصر والعالم، بعد الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون ويرجع الفضل في هذا الكشف لمهندس الآثار المصري كمال الملاخ الذي كان حينها مديراً لأعمال منطقة أهرامات الجيزة وذلك في عام ١٩٥٤، حين لاحظ وجود حفرتين مستطيلتين حفرتا في الصخر جنوب هرم خوفو مباشرة، ويصل عمق كل حفرة حوالي ثلاثين متراً، وما يذهل العالم هو الطريقة التي حفظت بها المركبة لمدة تزيد على ٤٥ قرنا من الزمان... وما حفظها من كل التأثيرات هو ان الحفرة كانت مغطاة بـ (٤١) كتلة ضخمة من الحجر الجيري المجلوب من محاجر مدينة (طره)، ويبلغ وزن متوسط تلك الكتل ١٨ طناً تقريباً وطول الواحدة منها ٤,٥ م وارتفاعها ١,٨٠ م ويبلغ سمكها ٨٥سم٢، وقد وضعت تلك الكتل بعناية على حافتي الحفرة ولاحظ المهندس، كما يقول دليلي إن هناك طبقة سميكة من الجبس تغطي الكتل الحجري وتملأ الشقوق والفجوات التي كانت بين الكتل، وهذا ما ساعد على حماية ما بداخل الحفرة من أي عناصر كان من الممكن أن تؤثر على سلامة القطع الخشبية من الحشرات والرطوبة ولزيادة الأمان عليها شيّد توت حول هاتين الحفرتين سوراً يعتقد بعض علماء الآثار بأنه السور المحيط بالهرم الأكبر للملك خوفو وهذا ما حافظ عليها ما يقارب ٤٥٠٠ عام.

### صنعت من خشب الأرز اللبناني

وأوضح محمود أن الملاخ كوّن فريقا من العلماء بالدراسة والتنقيب في الحفرة الشرقية عام ١٩٥٥، حيث تم رفع آخر كتلة حجرية من الحفرة لتتضح محتوياتها ويبهر الفريق الدنيا بعظمة ما أنجزه الإنسان وما استخرجه العلماء من الحفرة هو اجزاء لسفينة مصنوعة من خشب الأرز الذي قاموا بجلبه من جبل لبنان.. وكانت المركبة مفككة ومرتبة بدقة وموضوعة وفق نظام معين للحفظ في ١٣ طبقة تبعاً لأجزاء المركب الرئيسية والتي كان عددها (٦٥١) جزءا، مقسمة إلى (١٢٢٤) قطعة خشبية يصل طول أكبرها إلى (٢٣) مترا وأصغرها (١٠)سم الأجزاء الصغيرة التي لا تتجاوز الـ٥٪ من مجموع الخشب الكلي للمركب صنعت من الخشب المحلي وبيّن محمود بأنه عثر داخل الحفرة على بقايا حبال مصنوعة من نبات الحلفا كانت تستخدم لتجمع أجزاء المركب- وعثر كذلك على أجزاء من الحصران التي كانت تستخدم كمظلات لمقصورة السفينة وعلى أغلب نهايات قطع الخشب كتب رموز بالخط الهيراطيقي، وبينت الدراسات بأنها كانت مستخدمة ليس في صناعة السفن فقط بل حتى في أعمال البناء وتجمع أجزاء المركب وفق تلك الرموز..

ويقول دليلنا: إن وجود مركب خوفو يشير وبما لا يقبل اللبس الى أن هناك اعتقادا عند المصريين بوجود حياة ما بعد الموت.. وحين سألنا محمود عن مدى تأثير الخشب بعد خروجه من الحفرة وتعرضه للهواء.. أكد أن علماء الآثار قاموا بمعالجة تلك الكتل الخشبية أثناء رفعها من الحفرة كيميائيا بواسطة محلول (البولا فيثيل استيت) لحمايتها من أية أضرار كان من الممكن أن تلحق بها نتيجة تغير الظروف المناخية، وقد قام بهذا العمل الدكتور المصري زكي اسكندر رئيس المعمل الكيمياوي في مصلحة الآثار.

### الجندي وبنات نعش

تركت محمود وعدت إليها، تلك المفجوعة بابنها العاق الذي تركها لدهر قاس وجبابرة لا يجيدون غير الخراب، وبعثرة كنوزها غير آبهين بتاريخ وطن وثقافة شعوب، متسائلاً كم من سفينة استخدمت لنقل الخشب من لبنان الى العراق لتشييد مدن والق حضارتنا؟، هل من مجذاف يدلني عليه؟ هل من قطعة خشب احمي بها ظهري من كواتم الظلام، ومن الوجع الذي يذلني عند امتداد ملامحي قرب المرايا...

ماذا نقول؟ وماذا يقولون للتاريخ؟.. ماذا صنعوا لأجيالنا.. شعارات ولافتات تغلف جدران الحزن.. نعم يا صلاح نيازي كنت تقول صادقاً في (الجندي وبنات نعش).

- في مسقط الرأس

يتعين الشروق والغروب والشمال والجنوب..

كل شروق عداه غربة

كل غروب عداه مربك

وبنات نعش هذه المرة إلى اليسار قليلاً وورائي قليلاً تطيرت حقاً وملأت قلبي الهواجس كأن العراق انتقل فجأة.. إلى مكان مجهول أو ابتلعه بحر- ورمل حين ترتبك جهاتك يرتبك وجودك ما جدوى أن تسير إلى الأمام..

ورأسك إلى الوراء

نعم ما جدوى ذلك ياسادتي الكرام جداً؟!

صحوت على صوت محمود وهو يناديني (يباشا) فقلت له لماذا لا تناديني (يا خوفو)، فأنا من بلد تلونت شوارعه ووجوه أطفاله بالخوف والذعر.. ضحك محمود وهو يقول لي (أيه يعم.. ده خوفو).. ملك مصر العليا والسفلى أي الوجهتين القبلي والبحري.. وهو من الأسرة الرابعة وأشهر ملوكها هم سنقرو، وخوفو، وخفرع، وحرف –ع وفكاورع، ولد خوفو في قصر أبيه سنقرو في جنوب أهرامات الجزيرة – ويعد أهرامه أكبر الأهرامات – حكم الملك خوفو حوالي ٢٣ عاماً، كما ورد في البردية المعروفة (بردية توربن)، فيما تشير أبحاث أخرى الى أنه حكم مصر حوالي ٣٢ عاماً.

### مراكب مرصعة بالذهب

يجيبني محمود رداً على سؤالي هل هذا المركب ديني أم دنيوي؟

أن آراء العلماء اختلفت بهذا الشأن، فالبعض في داره الأبدية يتحد عليها مع إله الشمس (ر ع) في رحلته الأبدية عبر السماء من الشرق الى الغرب نهارا ومن الغرب إلى الشرق ليلاً، منيراً بذلك عالمي الأحياء والأموات كما يعتقد المصريون في طقوسهم وعلى هذا الأساس فأن الفرعون يحتاج إلى مركبين واحد منهما للنهار والآخر لليل، والبعض الآخر يعتقد بأن هذه السفينة هي جنائزية حملت جثمان الملك في رحلة حجه إلى (ابيدوس) حيث قبر الإله (أزوريس) قبل أن يتم دفنه بالهرم وكان الفرعون في هذه الرحلة يحتاج الى مركبين للإبحار أحدهما نحو الجنوب والآخر صوب الشمال، وفي هذه الحالة يحتاج إلى مركب ذي مجاذيف والآخر مزود بشراع وهذا ما يدفع للاعتقاد بأن الحفرة الثانية التي لم يبدأ العمل بها ستكون حاوية وحافظة للمركب الثاني الذي يحتوي على الشراع كما يقول محمود وفي عشرينيات القرن الماضي عثر عالم الآثار الأمريكي رويزز على ثلاثة حفر لكن لم يعثر فيها غير بقايا قليلة جداً ومتحللة من الخشب بالذهب لمراكب لم تحفظ جيداً وأزيلت بفعل التأثير الخارجي.

### أضخم المراكب الأثرية

يعد مركب خوفو من أضخم المراكب الأثرية التي عثر عليها إلى الآن – فمراكب الفايكنج مثلاً لا يزيد طولها على (٣٠) مترا، أما مركب خوفو وبعد ربط أجزائه بعضها مع البعض بلغ طول المركب ٤٣,٤ وعرضها في المنتصف هو ٥,٩ متر ،أما عمقها فيبلغ ١,٧٨ متر وترتفع مقدمة المركب المشكلة من حزمة بردي إلى (٦) أمتار، فيما ترتفع المؤخرة إلى سبعة أمتار – ويتكون المركب من مقصورة رئيسية تتكون من جمرتين، إحداهما صغيرة (٢) متر باتجاه المقدمة، والأخرى كبيرة (٧) متار يفصلها عن الأولى باب مسقف بثلاثة جذوع من النخل ولديها سقف مزدوج محاط بـ (٣٦) عمودا على شكل وتد خيمة.

أما مقصورة الربان فتقع في المقدمة، والمركب مزود بعشرة مجاذيف ضخمة على كل جانب يتراوح طولها ما بين ٦,٥ إلى ٨,٥ متر، وعثر بالمركب على مقياس لجس عمق المياه، وشوكة حبال ووتدين ومطرقة خشبية وحصير لتغطية المقصورة وجمعت أجزاء المركبة بواسطة تعاشيق وكلاليب خشبية مرتبطة ببعضها من غير استخدام أية مسامير معدنية.

### أبحث عن آلهة مكسورة

لرؤية المركب لا بد على الزائر أن يصعد ثلاثة مستويات مختلفة حول المركب ليتمكن من رؤية الأثر بالكامل، لذلك اختلف تصميم هذا المتحف عن بقية متاحف العالم لكونه الوحيد الذي يشمل على قطعة أثرية واحدة وهي المركب.. وفي المتحف تم عرض السفينة في منتصف الصالة الرئيسية بالدور الأرضي على قاعدة مرتفعة عند الأرض بمقدار ٧,٧٠ متر، والزائر عند وصوله لصالة العرض بالدور الأرضي يمكنه رؤية قاع المركب والشكل العام لها ثم ينتقل على طريقة السلم الى باحة ممتدة بطول المركب على ١١,٦١ مترا، يمكن للزائر رؤية أرض المركب من الداخل وكذلك المقصورة ثم ينتقل بعدها إلى مستوى متوسط على ارتفاع (٨,٨٠) متر ليرى الشكل العام للمركب بعد ذلك ينتهي الى سلم يؤدي الى صالة توديع الزائر وبشأن عدم وجود إنارة كافية، قال محمود لقد تم الغاء جميع الإنارة الصناعية واعتمد على الإنارة الطبيعية في المتحف الذب بدأ العمل به عام ١٩٦١ وتوقف العمل به لمشاكل هندسية وفنية، وبعد التغلب عليها تم استئناف العمل بالمتحف عام ١٩٨١، حتى تم افتتاحه عام ١٩٨٢.

خرجت من المتحف وأنا أردد محسوراً ما قاله الشاعر المصري محمد آدم: ذات يوم صنعت لي أمي دمية من الخشب ومن يومها وأنا أعمل نحاتا بالفراغ- وفي لحظات الألم والضوء.. ابحث عن آلهة مكسورة.